

مدى الكرمل Mada al-Carmel

المركز العربي للدراسات الاجتماعية التطبيقية

برنامج دراسات إسرائيل

ملفات  
مدى

يلطف من عرب 48 (ا.ف.ب)

قراءات في الحرب الاسرائيلية على غزة 2014  
ملف رقم 3، 2014 | المحرران: إيمان شحادة ونديم روحانا.

# اليسار في إسرائيل في ضوء الحرب على غزة

غادي الغازي

كانون أول 2014

# اليسار في إسرائيل في ضوء الحرب على غزة

غادي الغازي<sup>1</sup>

لقد كشفت الحرب على غزة مواطن ضعف اليسار في إسرائيل بمجمله. إنَّ تجنُّد اليسار الصَّهيوئيِّ لدعم الحكومة (تعزيز الحكومة من جانب حزب العمل، التباهي بالمقاتلين من جانب "سلام الآن"، والتعبير عن رسائل متناقضة من قبل ميرتس ودعمها للحرب) لم يكن مفاجئاً. إنَّ المؤشِّر السيِّئ للمستقبل هو استعداد أجزاء في اليسار غير الصَّهيوئيِّ لإعطاء شرعية لموقف اليسار الصَّهيوئيِّ خلال الحرب (إجراء مظاهرات مشتركة ضدَّ الحرب بعد أن توقَّف القتال، والتنازل في إطار "مظاهرات سلام" عن مطلب واضح ومشارك برفع الحصار عن غزة).

شوَّشت أجزاء في اليسار غير الصَّهيوئيِّ رسائلهم تجاه الحرب. صحيح أنَّهم تحدَّثوا عن الحاجة الماسَّة إلى وقف إطلاق النار، لكنَّهم تجاهلوا باللغة العبرية السبب المباشر للحرب - الحصار المتواصل على غزة. وبالإضافة، لم يحاولوا - باللغتين - تحدِّي المفهوم السائد لـ "الحملة العسكرية" والإشارة إلى أنَّها تشكِّل فصلاً إضافياً في حرب دائمة على أكبر مخيم للاجئين في العالم. وعموماً، اليسار غير الصَّهيوئيِّ، والعنصر الرئيسيِّ فيه - القوى السياسية الوطنية بين فلسطينيي 48 - لم تنجح في التوحد وتحدي الحكومة والرأي العامِّ في إسرائيل من خلال نشاط احتجاجيٍّ موحد ورسائل سياسية واضحة.

أحد أسباب هذا الفشل كان حملة القهر السياسيِّ غير المسبوقة، التي بدأت خلال تصاعد وتيرة الأحداث في الأسابيع التي سبقت الحرب، واستمرَّت بكلِّ القوَّة خلال الحرب، أيضاً (عمليات

1. بروفيسور غادي الغازي، مؤرِّخ وناشط سياسيٍّ؛ عضو حركة ترابط.

الاعتقال المتواصلة والعشوائية، العنف والتنكيل بالمتظاهرات والمتظاهرين الفلسطينيين). أمّا السبب الثاني فيعود إلى حالة الانقسام المتواصل بين القوى السياسية المعارضة للصهيونية، التي لم تنجح في الدمج بين النقاش السياسي الضروري من جهة، والنضال الموحد، أي ضد الاستعمار من جهة أخرى. وأمّا السبب الثالث فيعود - لربّما - إلى حالة الحرج السياسي التي عاشتها قوى اليسار داخل الخط الأخضر، وذلك في ضوء حقيقة أنّ حركة حماس هي التي قادت المقاومة في غزة (ومن الجدير بالذكر أنّ هناك قوى سياسية أخرى شاركت، أيضاً، في المقاومة).

لقد كانت الحرب على غزة حرباً استعمارية؛ واحدة من سلسلة طويلة من الحروب الاستعمارية التي يتم إنكارها، والتي تديرها إسرائيل ضد الشعب الفلسطيني. إنّ مثل هذه الحروب تُدار ضدّ عدوّ لا يُعترف بشرعيته، كما أنّ هذه الحروب تمتاز - في أحيان متقاربة - بطابع " حملة عقوبات " وحملة ضبط " تعليمية - تربوية " ( " كَيّ الوعي " ). لا تُدار الحروب الاستعمارية - بالضرورة - ضدّ قوى سياسية " لطيفة " من وجهة نظر يسارية؛ الضدّ هو الصحيح: تُنتج الحروب الاستعمارية هدمًا ودمارًا إنسانيًا واجتماعيًا هائلًا لدى المجتمع الأصلي، وهي تُدار - كالعادة - ضدّ المجتمع المدني الأصلي بمجمله بلا تمييز. المجتمع الأصلي هو العدو الحقيقي الذي تُوجّه ضده الحروب الاستعمارية - أيّا كانت القوى السياسية التي ترأسه.

كانت الحرب الأخيرة - من هذه الناحية - فصلًا إضافيًا، فقط، في سلسلة الحروب التي تديرها إسرائيل ضدّ اللاجئين الفلسطينيين. لذلك، وبدون علاقة بمسألة هوية القيادة السياسية للجانب الفلسطيني في قطاع غزة، كانت هناك حاجة إلى عملية احتجاج سياسي واضحة وموحدة ضدّ الحرب الاستعمارية لإسرائيل على الفلسطينيين.

لا تبدو الحروب الاستعمارية كالحروب الرسمية، الكبيرة، المعلنة، تلك التي صيغت قوانينها في أوروبا منذ القرن السابع عشر. إنّ لها مميّزات خاصّة.

ليس للحروب الاستعمارية بداية ولا نهاية؛ هناك استراحات، فقط. ولأنّ الحديث عن حرب دورية، تمتدّ عشرات السنين، كان يجب أن تلمس رسائل اليسار ضدّ الحرب الأسباب العميقة للحرب، وعدم الاكتفاء بالمطلب المهمّ، وقف إطلاق النار. إنّ الكلام السطحي اكتفى بالاحتجاج، فقط، على التصعيد العسكري وطالب بـ " وقف إطلاق النار، الآن ". وقد خدم ذلك، عمليًا، ماكينة دعاية السلطات، التي حاولت اختزال النقاش السياسي بسؤال " من بدأ " هذه الجولة في نقطة الزمن

هذه أو تلك، والتي حرصت على التمييز بين الحصار والخنق المستمرين منذ سنين (بما معناه عنف "مشروع"، أو شفاف) وبين إطلاق النار واستخدام الرصاص (عنف "غير مشروع").

إنَّ هدف الحروب الاستعمارية ليس عسكرياً خالصاً؛ بل إنَّ هدفها الأساسيَّ تحطيم المجتمع وتغيير الوعي. ولذلك ليس للحروب الاستعمارية أهداف واضحة يمكن تحقيقها (كم قنبلة نحتاج لـ "كَيّ الوعي"؟)، فلا نهاية لها، أيضاً. وللحرب الأخيرة، أيضاً، كان هناك هدف "تعليمي - تربوي": "أولاً وقبل كل شيء "كَيّ وعي" الشعب الفلسطيني - مرّة تلو أخرى، بصورة دورية، وبلا نهاية. وإلى جانب هذا الهدف، فهو موجّه، أيضاً، لتعويد الإسرائيليين على حرب دائمة وتعزيز وعي التوجّه "هم أو نحن" بـغية تعزيز سيطرة الحكم الصهيونيّ عليهم. الحروب التي تهدف إلى "تلقين الآخرين درساً" هي حروب فيها استراتيجيات، لكن ليس لها من آخر. عناصر الجيش تعلم ذلك، ولذلك لا تجدهم يتحدثون عن انتصار نهائيّ بل عن الحاجة إلى "جزّ العشب" مرّة بعد مرّة. موقف اليسار المناهض للاستعمار خلال العدوان على غزة كان يجب ألاّ يكتفي بالكلام عن "السلام"، الذي أصبح - منذ زمن - غطاءً لسياسة "إدارة الصراع"، أي إدارة حرب دائمة "خفيفة الوطأة"، حرب "هادئة"، حيث الفلسطينيين، فقط، هم من يدفع ثمنها الفوريّ.

يجب أن نقول بوضوح: "السلام" - على لسان الأقوى - معناه أن يسلم جزء من الشعب الأصليّ بهزيمته ودونيته والتوصّل إلى "هدوء"، في حين تتواصل هناك حرب دائمة ضدّ الفلسطينيين على إقصائهم من الأرض بجرعات متغيّرة الحدة والكثافة. داخل "معسكر السلام" الصهيونيّ - الحديث عن "السلام" معناه تسليم الفلسطينيين بالتفوق اليهودي، من خلال خلق واقع محتمل (tolerable) بالنسبة إليهم (حسب رأي مهندسي "السلام")، بدون إعادة توزيع الموارد وبدون مواجهة المسائل الأساسية وهي: عملية الاستيطان، والأراضي، وعودة اللاجئين.

أيّ رسالة سياسية أخرى يمكن أن تكون للييسار المعارض للاستعمار من هذا الجانب للخط الأخضر؟

بدل الوعد بـ "السلام" وتعزيز أو هام "عملية السلام"، على اليسار اللا-صهيونيّ داخل إسرائيل - حسب رأي زملائي في حركة ترابط وحسب رأيي - أن يقول للمجتمع الإسرائيليّ الحقيقة الجارية إنكارها: ليس هناك ولن يكون هناك سلام طالما لم يتمّ التعامل مع المسائل المحورية: استمرار الاحتلال، تجاهل مشكلة اللاجئين، والاستمرار في عملية سلب الأراضي والاستيطان.

لن تكون هناك مصالحة بين الشعبين على أساس التفوق اليهودي من جانبي الخط الأخضر، بل على أساس المساواة وتصحيح الغبن التاريخي، بما في ذلك عودة اللاجئين وإعادة توزيع الأراضي والموارد بعد سنوات طويلة من الاستعمار الاستيطاني.

أعي تمامًا صعوبة استيعاب الإسرائيليين لهذه الرسالة. لكنّها الرسالة الصادقة، علمًا أنّ كثيرًا من المواطنين اليهود في إسرائيل يعلمون في قرارة أنفسهم، أنّ كلّ حرب وكلّ حملة عسكرية على غزة إنّما تُعدّ العدة لحرب أخرى. فإنّه رغم قوّة إسرائيل العسكرية، الشعب الفلسطينيّ بمختلف شرائحه لن يستسلم ولن يقبل بالاستمرار في اضطهاده.